– لا.
فعاد عبدان يهز كتفيها بشدة وهو يقول : »ماذا تعنين؟«.
– قلت لك : لا، ألا تفهم معنى لا؟ دعني، فقد أوجعت كتفي، أم تريد أن أكذبك فأزعم أنني سمعتها تستغيث؟
– أتعنين أنها استغاثت فما سمعتها، أم أنها لم تستغث البتة؟
– من أين لي أن أعلم الحقيقة؟
– هل كان ثمامة يعرف عالية؟
– لو لم يعرفها لما قال فيها يوماً : إنها أجمل فتاة قبّل شفتيها، ماء الفرات؟
– هل آنست لديها شيئاً من الميل إليه؟
– ويلك! ماذا تريدني أن أقول عن أختي؟
– لا شيء، وإنما أريد التحري فحسب.
– إنها بعد لكتوم، قلما يعرف أحد ما يدور في خلدها«.

إن الجوانب التصورية في رواية »الثائر الأحمر« تقوم بوظائف فنية مهمة، لأنها تعمل على تعريف القارئ بالشخصيات المختلفة وما تخفيه من مشاعر وأحاسيس، فنحن نجد، على سبيل المثال، أن الغنيمة التي وجدت في منزل الأفاق المتشرد، أو القصور الباذخة لفئة الاقطاعيين، تصور من خلال شخصية حمدان الفقير البائس، إذ تثير في صدره مشاعر الحسد والحسرة والمرارة والتمرد على هذا النحو:

ولما فرغوا من طعامهم دار الغلام عليهم بمغسلة فضية، فجعل يفرغ الماء على أيديهم من ابريقها الرشيق اللامع كأنه إوزة مصنوعة من الفضة، وقد أحس حمدان وهو يغسل يديه ويتمضمض بالإشفاق على الإناء الثمين أن يغسل الوضر عليه أو يتفث المياء فيه...

أما قصور ابن الحطيم فتوصف من خلال الشخصية الرئيسية على هذا النحو:

وانتظر حمدان في غرفة الاستئذان الخارجية وهو سور القصر وسدته العالية عن يمينه الباب المؤدي إلى داخل القصر عن يساره، فوقف يتأمل النقوش البديعة على جدران الحجرة محلاة بماء الذهب والزخارف الدقيقة على الباب المنجور من الأبنوس الفاخر المطعم بالعاج الثمين، ترى كم بدرة من الذهب أنفق على هذه التصاوير والتخاطيط التي لا تكسو من عري ولا تشبع من جوع؟

وهذه البسط الثمينة التي تطؤها نعلاه التربتان، ما أحوجه وأحوج أمثاله إلى قطعة منها ليفرشها لضيوفه في الولائم والأعياد، فإن كان هذا كله في حجرة الاستئذان الخارجية، فكيف يكون داخل القصر؟ وكيف تكون غرفه العليا؟، وماذا يوجد فيها من زينة ومتاع؟

هذا كله لابن الحطيم الذي ما حمل قط في حياته فأسا ولا وقف بقدمه على سنة محراث، ولا يعرف كيف يؤبر النخل أو يبذر الحب أو يسقي الزرع، ثم يقال: إنه متعب لا يقدر أن يقابل أحداً...

ونحن نرى أن الاقتباسات القرآنية في رواية واسلاماه تكاد تختفي تماماً في رواية الثائر الأحمر، ونجد في الأخيرة إلى جانب الأسلوب الجميل بعض الفقرات الشعرية المركزة التي تضفي على الموقف أهمية خاصة كما نرى في النصوص الآتية.

وكان النسيم عليلا يوسوس بين الغصون، كما كان عندما خرج من قريته على نعليه، ولكن يحس له الآن قشعريرة تسري في ظهره وكأن حفيفة أنين ما زالت تردده الثواكل حتى بحت به حناجرها.

فضمت فمها الأرجواني الصغير بقوة لئلا يفيض بالابتسام فجعل الابتسام يفيض من عينيها وأسارير وجهها، ثم مالبث أن طغى على فمها فتدفق ثم سال..

ولقد خف الحرج الذي كان ينوء به قلبه فما بقي منه إلا رسيس من الذكرى يجمجم بأضواء من النشوة واللذة، بينهما صدى من الشجن الرقيق.

أما رواية باكثير التاريخية سيرة شجاع فلا تضيف جديداً إلى ما قلناه عن رواياته السابقة، فهي تتناول بداية الدولة الأيوبية في مصر، ولكن باكثير استوحاها في الحقيقة من الثورة المصرية سنة١٩٥٢ م، إذ يهيدها إلى جمال عبدالناصر ورفاقه ويقول أهدي هذه القصة التي استقيت أحداثها وحقائقها من سطور تاريخنا العظيم الحافل واستوحيت معانيها ومغازيها من مشهود الثورة العظيمة الخلاقة.

لذلك فإن باكثير في هذه الرواية يحاول أن يبرز أوجه الشبه بين الأيوبية القديمة والناصرية الحديثة.

والحقيقة أن رواية سيرة شجاع تعتبر انتكاسة لما قدمه باكثير في رواياته السابقة، ولا سيما في الثائر الأحمر، فهو يبدو في سيرة شجاع داعية أكثر منه فناناً، وقد اختلطت فيها الحقبة التاريخية القديمة بأحداث الحقبة المعاصرة وما تحمله من شعارات قومية، كما خلت هذه الرواية من مهارة الحبكة وعنصر التشويق والعناصر الفنية الأخرى التي رأيناها في أعماله السابقة.

وأخيراً.

فإن باكثير يمثل، كما ذكرنا مع رفاقه الآخرين لا سيما أبو حديد ونجيب محفوظ، قمة ما وصلت إليه الرواية التاريخية خلال الأربعينيات من القرن الماضي.

ويبدو أن ثورة١٩٥٢ م قد كررت ما فعلته انتفاضة١٩١٩ م في نفوس الأدباء والقصصيين في مصر من انجذاب نحو الواقع والتفاؤل بالمستقبل وقد تخلى نجيب محفوظ عن الماضي منذ زمن طويل، أما أبو حديد فقد كتب روايته أنا الشعب سنة١٩٥٤ م، كما كتب باكثير في العام نفسه روايته سيرة شجاع وكلتا الروايتين إنما تمثلان الفرحة بالثورة المصرية الجديدة ولكن باكثير عاد وعبر عن خوفه من أن تنتكس هذه الثورة في رواية الفارس الجميل التي كتبها سنة١٩٦٥ م وكأنه يحذر مما وقع بالفعل في ٥ يونيو١٩٦٧ م.

ويبدو أن الرواية التاريخية قد تلاشت هي الأخرى في تلك السنوات، وحين عادت إلى الظهور في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي على أيدي الشباب من الحداثيين، من أمثال الغيطاني وأمين معلوف لم تعد هي الرواية التاريخية القديمة التي نعرفها، بل أصبحت مزيجا من الحاضر والماضي، بل أصبح الحاضر هو المتحكم في استدعاء التراث وتوظيفه بما يتلاءم مع الحالة السيئة التي وصل إليها العرب في الوقت الراهن، وتلك قصة أخرى.

العولمة الإنسانية

■ طالت العولمة السائدة في عالم اليوم ظاهرة الهجرة أيضا التي أصبحت بدورها «معولمة» في بدايات هذا القرن الحادي والعشرين. هذا ما تؤكده مؤلفة كتاب «العولمة الإنسانية» منذ البداية. وتعبد ذلك إلى تعاظم «حركة البشر» التي تضاعفت ثلاث مرات خلال فترة ٤٠ سنة فقط إلى تعميم الدراسة والمعلومات وسهولة النقل والانتقال وفتح حدود بلدان كانت مغلقة حتى الأمس القريب.

وتعتبر المؤلفة كاترين ويتول أيضا أن هذه الظاهرة تشكل «ملحمة الهجرة الثانية» في العصر الحديث بعد تلك «الملحمة الأخرى الكبرى» التي كانت قد شهدتها سنوات ١٨٨٠-١٩٣٠.

ويتواجد في العالم اليوم حوالي ٢٠٠ مليون مهاجر كانت قد ازدادت حركة انتقالهم خلال العشرين سنة الأخيرة بحيث ان جميع مناطق العالم اليوم أصبحت أمكنة لاستقبالهم أو انطلاقهم أو مرورهم.

وتعاظم ظاهرة الهجرة يطرح أيضا عددا من الأسئلة على الدول-الأمم نفسها. ذلك من حيث قدرتها على أن تراقب حدودها وتحدد معالم هوية خاصة فيها على أساس تكوّنها التاريخي. كما أن الظاهرة جعلت من الأفراد المعنيين قوة لها وجودها على مسرح العالم، وخاصة عندما ينتظم هؤلاء الأفراد في إطار شبكات «عالمية» اقتصادية أو ثقافية أو سياسية أو عائلية.

وتتمثل أحد الأسباب لبروز هذه الظاهرة في وجود تباين كبير بين المجتمعات البشرية من حيث مستوى المعيشة. هكذا يتطلع المهاجرون من البلدان الفقيرة إلى الرفاهية التي وفّرها النموذج . المودیل . الغربي لأبنائه مما يبعث في داخلهم ثمن ذلك حياتهم في بعض الأحيان. وثبت أن بلدان استقبالهم، رغم ما اتخذته خلال السنوات الأخيرة من إجراءات رادعة ومتشددة، وبلدان منطلقهم، ليست كلها في موقع القدرة على ضبط «تيارات الهجرة».

وتشرح المؤلفة على مدى العديد من الصفحات واقع أن المهاجرين يشكلون تحديات حقيقية بالنسبة لمفاهيم السيادة الوطنية والحدود التي كانت قد تأسست عليهما في الأصل الدول-الأمم، وبالتالي غدا هؤلاء المهاجرون يشكلون هم أيضا مؤشرا على زيادة أهمية ظاهرة «حركة البشر» التي أصبحت في صميم «التوجهات الكبرى» السائدة في عالم اليوم.

لكن هذه الظاهرة تتواكب أيضا، كما تشرح المؤلفة، مع مفارقة كبيرة هي أن أبناء البلدان الغنية هم الذين يتم تشجيع «حركتهم» بينما أن ثلثي أبناء البشرية تقريبا محرومون من «حق الحركة» إلى حد كبير. كثل هذا الحق بدأ اعتباره، حسب التحليلات المقدمة، بمثابة «أحد حقوق الإنسان»، كما تنص المواثيق العامة لحقوق الإنسان والعديد من النصوص الأخرى، ومما تم ترجمته في الواقع العملي بأحيان كثيرة في حركات التأييد التي تنطلق في البلدان الغربية لدعم أولئك الذين تنطبق عليهم تسمية الـ «بدون أوراق».

وإذا كان من المشهور عن الولايات المتحدة الأميركية، أنها بلد من المهاجرين أصلا، فإن القارة الأوروبية هي التي تشكل اليوم الوجهة الأولى للمهاجرين من بقية أنحاء العالم. وتحتل ألمانيا المرتبة الأولى بين بلدان استقبال المهاجرين. وكانت قد استقبلت منذ عام ١٩٤٥ ثلاثة أرباع طالبي اللجوء إلى أوروبا وتضاعف عدد الوافدين إليها منذ انهيار جدار برلين عام ١٩٨٩، هذا إذا شمل المعنيون المهاجرين ذوي الجنسية الألمانية البالغ عددهم حوالي المليوني شخص، الذين قدموا للإقامة في ألمانيا وللحصول على جنسيتها.

أما فرنسا فهي أقدم بلدان أوروبا من جهة وفود المهاجرين إليها. وكان ذلك خاصة في نهايات القرن الثامن عشر عندما بدت فيها ملامح الانحسار الديموغرافي بينما كان عدد السكان يتزايد، على العكس، في البلدان الأوروبية المجاورة. هكذا جرى دمج، وبالأحرى «تمثّل»، عدة ملايين من المهاجرين على مدى أكثر من قرن والذين كان أغلبهم من العمل. هؤلاء العمال نالوا جميع الحقوق، حتى بالنسبة للذين لم يحصلوا منهم على الجنسية الفرنسية. ذلك حتى عام ١٩٧٣، أي بعد الصدمة النفطية الأولى مباشرة، وظهور بوادر البطالة، حيث كان أول الضحايا هم من أجيال المهاجرين الأوائل ذوي التأهيل المتواضع، وبعدهم أولادهم على خلفية مواقف لا تخلو من النظرة العنصرية. وبرزت «مشكلة» الهجرة مع فترة الانحسار الاقتصادي بشكل واضح. ذلك أن النظرة السائدة للمهاجرين كان هو أن وجودهم هو مؤلف فتبيّن أن السواد الأعظم منهم هم بالأحرى من المقيمين «نهائيا»، أول بحكم الامتيازات التي تعطيها لها قوانين البلدان المتواجدين فيها وثانيا بسبب الأوضاع الاقتصادية التي تعاني منها بلدانهم الأصلية. هكذا أيضا وجدت السلطات نفسها في بلدان الهجرة أمام مسؤولية معالجة وضع «لم يكن محسوبا» بشكل جيد في البداية.

مع ذلك تؤكد المؤلفة على أن أشكالا عديدة من اندماج المهاجرين تتم «دون ضجيج» داخل مجتمعات الهجرة، خاصة عبر بروز «طبقة وسطى» بين المهاجرين الذين يأخذون دورهم في تسيير مجتمعاتهم الجديدة. وأيضا عبر الزواج المختلط الذي ينتشر أكثر فأكثر، كما تدل مختلف الإحصائيات.

لكن بالمقابل أصبح الحصول على جنسية بلدان الهجرة، وهي الوسيلة التي كانت تسعى إليها السلطات العامة فيها سابقا، أكثر فأكثر صعوبة وتعقّدت شروط الحصول عليها إلى درجة لم تكن معروفة في السابق. وفي بلد مثل فرنسا لا يزال باب التمتع بالحقوق السياسية للأجانب المقيمين على المستوى المحلي مغلقا منذ أكثر من ٣٠ سنة، ولا يزال التمثيل السياسي للفرنسيين «الجدد»، أي من أبناء الهجرة في مختلف المجالس المنتجة ضعيفا بالمقارنة مع البلدان الأوروبية الأخرى.

وكتاب تطرح فيه مسألة الهجرة كأحد تحديات هذا القرن الذي قد يتثبّت فيه حق الهجرة كـ «أحد حقوق الإنسان الأساسية».

من كانط إلى هابرماس

■ مؤلف هذا الكتاب هو الباحث اندرو باوي المختص بالفلسفة الألمانية وهو هنا يقدم لنا صورة بانورامية واسعة عن تطور هذه الفلسفة والمراحل التي مرت بها على مدار القرون الثلاثة المنصرمة: أي منذ عصر كانط وحتى اليوم. نقول ذلك ونحن نعلم أن الفلسفة الحديثة ولدت في انجلترا أو هولندا ثم بالأخص فرنسا في القرن السابع عشر.

وقد اتفق الجميع على القول بأن ديكارت هو أبو الفلسفة الحديثة،، ومن معطفه خرج الفلاسفة الكبار الآخرون كسبينوزا ومالبرانش ولايبنتز، وهذا الأخير يمكن اعتباره أول فيلسوف ألماني حديث وكبير. ثم تلاه في القرن الثامن عشر والتاسع عشر فلاسفة كبار ليس أقلهم كانط أو فيخته أو هيغل أو شيلنغ. وهم زعماء المدرسة المدعوة بالفلسفة المثالية الألمانية. ويرى المؤلف أنه إذا كانت فرنسا هي استاذة ألمانيا طيلة القرن السابع عشر بل وحتى منتصف القرن الثامن عشر، فإن ألمانيا أصبحت هي استاذتها بدءاً من كانط وهيغل. والواقع ان التنوير الفرنسي سبق التنوير الألماني بحوالي النصف قرن.

ولهذا السبب فإن فولتير كان استاذاً للملك الشهير فريدريك الثاني وبقية مفكري ألمانيا. ولكن ينبغي الاعتراف بأن التوجه العقلاني والإنساني كان قد ابتدأ في ألمانيا قبل ذلك التاريخ. وكان أول مفكر تنويري بهذا المعنى هو كريستيان توماسيوس (١٦٥٥ . ١٧٢٨) الذي قدم تفسيراً متسامحاً وعقلانياً عن الدين. ولذلك لاحقه الأصوليون المتزمتون فهرب إلى مدينة «لاهال» لكي يدرس في جامعتها. وكان أول فيلسوف ألماني يمارس مهنة استاذ الجامعة.

وقد ساهم في تحرير الجامعة الألمانية من الفلسفة الجامدة للقرون الوسطى. وقال بأنه يحق للفلسفة الدنيوية ان تتحرر من هيمنة الفلسفة الدينية المسيحية. فللعلم مجاله ولا ينبغي بعد الآن ان نخلط بينهما.

ثم اتخذ توماسيوس قراراً خطيراً ألا وهو: أن يدرس الفلسفة باللغة الألمانية لا اللغة اللاتينية التي كانت تعتبر لغة العلم والفكر في كل أنحاء العالم آنذاك. وكانت اللغة الألمانية تعتبر بمثابة لغة عامية لا ترقى إلى مستوى التفلسف والتعبير عن الفكر. وبالتالي فقد ساهم هذا الفيلسوف في تقوية النزعة القومية الألمانية.

ثم جاء كانط بعدئذ وأحدث ثورة كوبرنيكية في تاريخ الفلسفة الألمانية والعالمية ككل. وبدءاً من تلك اللحظة أخذ الألمان يتفوقون على الفرنسيين والانجليز وبقية الأوروبيين من الناحية الفلسفية. وقد وصل الأمر بهيدغر لاحقاً إلى حد القول بأنه لا توجد إلا لغتان للتفلسف في العالم: اللغة اليونانية واللغة الألمانية.

فالأولى هي لغة سقراط وأفلاطون وأرسطو، والثانية هي لغة لايبنتز وكانط وهيغل ونيتشه.

ثم يردف المؤلف قائلا: لقد حققت الفلسفة المثالية الألمانية تركيبة موفقة بين عقلانية ديكارت وإنسانية روسو العميقة بالإضافة إلى إيمانه بالحرية. ولذلك فإن فلسفة الألمان تعتبر أكبر فلسفة في العصور الحديثة. فقد كانت مزيجاً من العقلانية والحرية ومن الإيمان بإمكانيات الإنسان على تأسيس نظام جديد خال من التعصب والظلم والاعتباط ويمكن القول بأن كانط هو استاذ الغرب بعد ديكارت من الناحية الفلسفية. فقد قدم له المنهجية العلمية والعقلانية المناسبة لتحقيق التقدم في كل المجالات من مادية ومعنوية، ولهذا السبب فإن المجتمعات الأوروبية تدهشنا بحسن تنظيمها وعقلانيتها وترتيبها وكل مظاهرها الحضارية.

فالفضل في كل ذلك يعود إلى الفلاسفة الكبار الذين دلوها على الطريق.. والشيء الغريب هو أن كانط الذي يعتبر أكبر فيلسوف في العصور الحديثة لم يفارق مدينته الصغيرة ولم يسافر إلى أي منطقة من مناطق العالم كما حصل للفلاسفة الآخرين. وبالتالي فقد تعرف على العالم كله من دون أن يبرح غرفته!

فقد كان مطلعاً على جغرافية كل البلدان دون أن يسافر إلى أي بلد. وكان انساناً محترماً جداً من الناحية الأخلاقية ولا أحد يستطيع أن يناله من هذه الناحية. فالفلسفة إذا لم تكن أخلاقية ليست فلسفة في نظره ولا تستحق هذا الاسم. وإذا لم تساهم الفلسفة في تهذيب الناس من الناحية الأخلاقية فإنها تكون قد فشلت في مهمتها، وهذا ما شرحه مطولاً في كتابه الشهير «نقد العقل العلمي».

ولكن الكتاب الأشهر هو ذلك الذي أصدره قبل فترة تحت عنوان «نقد العقل النظري». وهو يعتبر أهم كتاب في الفلسفة بعد كتب أرسطو وأفلاطون وديكارت. والبعض يعتبره أهم منها جميعاً لأنه استوعبها وتجاوزها.

ثم لا ينبغي أن ننسى كتابه الأخير عن الدين تحت عنوان: «الدين ضمن حدود العقل فقط». ففي هذا الكتاب قدم كانط صورة عقلانية عن الدين المسيحي ورفض كل الجوانب الخرافية او اللاعقلانية في هذا الدين. وقال بما معناه: أن الدين هو الأخلاق أو المعاملة وكل ما عدا ذلك تفاصيل.

ثم يردف المؤلف قائلاً: اما الفيلسوف الكبير الآخر الذي جاء بعد كانط فهو بالطبع هيغل. وقد استفاد كثيراً من سلفه الأكبر ولكنه تجاوزه في بعض النقاط. فكانط لم يركز على التاريخ كثيراً في فلسفته وانما اهتم بنيوتن والعلوم الطبيعة بشكل أساسي لكي يشكل فلسفته.

اما هيغل فكان فيلسوف التاريخ بامتياز. فقد درس في كتابه الشهير «علم ظاهريات الروح» مجرى التاريخ البشري منذ أقدم العصور وحتى اليوم. واستنتج الدروس والعبر من صعود الحضارات وموتها.

كما استنتج القانون الأساسي الذي يتحكم بمسيرة التطور في التاريخ البشري.

وهذا القانون الجدلي الذي يربط بين الأطروحة ونقض الأطروحة والتركيبة التي تجمع بينهما وتتجاوزهما. وهكذا نلاحظ أن التاريخ يتقدم إلى الأمام بشكل جدلي، وان التناقض هو محرك التاريخ.

وبالتالي فلا ينبغي ان نخشى من التناقض فلولاه لجمد التاريخ وتوقف.

والتناقض الجدلي الخلاق يعني ان القديم لا يموت إلا لكي يولد في الجديد. والمجتمع في حالة تطور مستمر لأن كل تركيبة جديدة تكون عرضة للتناقض من جديد وتوليد أطروحة وأطروحة مضادة وتشكيل تركيبة أخرى وهكذا دواليك..

وبالتالي فلا توجد حالة نهائية في التاريخ على عكس ما توهم فوكوياما فيما بعد، وعلى عكس ما توهم هيغل نفسه! ومعلوم ان الفيلسوف الكبير اعتبر ان فلسفته هي المعرفة المطلقة وانه لا شيء جديد بعدها.

وهكذا وقع في تناقض مع القانون الجدلي الذي كان قد اخترعه. ولكن من شدة إعجابه بما فعل إعتقد أنه وصل بالمعرفة إلى نهايتها القصوى. ثم يردف المؤلف قائلاً:

لا يمكن فهم فلسفة هيغل اذا لم نأخذ بعين الاعتبار حدثين أساسيين حصلا في وقته: الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية الانجليزية. فالأولى «اقنعته بان التغيير السياسي ممكن وان القضاء على النظام الإقطاعي الأصولي المستبد القديم ممكن ايضاً. وهذا يعني ان الجنس البشري قادر على تحقيق التقدم على كافة المستويات اذا ما ناضل البشر من اجل حريتهم واذا ما دفعوا الثمن وضحوا بالغالي والرخيص.

واما الثانية فأقنعته بان تغيير الواقع المادي ممكن عن طريق الصناعة والتكنولوجيا. فالإنسان لم يعد مضطراً إلى بذل الجهود العضلية المنهكة من أجل تحسين وضعه الاقتصادي بعد ان حصلت الثورة الصناعية وتم اختراع الآلات التكنولوجية الحديثة. يضاف إلى ذلك ان الإنتاج الاقتصادي تزايد أضعافاً مضاعفة بفضل هذه الثورة الصناعية المباركة. وبالتالي فأصبح من الممكن تحسين الوضع المعيشي لقطاعات واسعة من السكان. وهذا الشيء كان مستحيلاً في القرون الوسطى: أي قبل حصول الثورة العلمية والصناعية والتكنولوجية.

وقد كانت لكل ذلك انعكاسات مهمة على الفلسفة بطبيعة الحال.

وكان هيغل مدعواً لأخذ هذا العامل المهم بعين الاعتبار أثناء تنظيره للدولة الليبرالية الحديثة، دولة الحقوق والقانون والمؤسسات.

ثم يتابع المؤلف بعدئذ استعراض تاريخ الفلسفة الألمانية المليء بالانجازات وأسماء المشاهير. ويقول بما معناه: بعد هيغل ظهر عدة مفكرين كبار كماركس ونيتشه وفرويد. اما ماركس فكان هيغليا في شبابه، وكان ينتمي إلى اليسار الهيغلي. ولكنه عكس منظور استاذه المثالي فجعله مادياً.

وزعم بان الجدل الهيغلي كان مقلوباً: أي الأرجل فوق والرأس تحت! ولذلك فقد قلبه لكي يقف على رجليه. وكان يقصد بذلك ان المادة وليست الروح هي التي تحرك التاريخ، على عكس ما قال هيغل.. ولهذا السبب ركز ماركس كثيراً على العوامل المادية وأنماط الإنتاج الاقتصادية واعتبر انها هي الأهم. ولكنه بالغ في هذا الاتجاه إلى حد إهمال أهمية الفكر والعوامل الثقافية والروحية باعتبار أنها بنى فوقية سطحية بالقياس إلى البنى التحتية المادية التي هي وحدها المهمة بحسب زعمه.

بالطبع فان نظرية ماركس على وجاهتها ليست خالية من النواقص والأخطاء وقد صممت مسيرة التاريخ اللاحقة هذه النواقص. ثم يتوقف المؤلف كثيراً عنه أهم فيلسوف ألماني بعد هيغل في القرن التاسع عشر الأوحد: فريدريك نيتشه.

وقد كان شاعراً كبيراً بقدر ما كان فيلسوفاً كبيراً. وأحياناً كثيرة عندما تقرأه تنسى الفكرة من كثرة ما يبهرك الأسلوب الرائع الذي لا يضاهى. وقد قام نيتشه بنقد صارم وعميق للمسيحية والأخلاقية الدينية المرتبطة بها. كما وانتقد فلسفة أفلاطون وكل الأنظمة الميتافيزيقية والماورائية: أي الأنظمة التي تتحدث عما وراء الطبيعة وتزعم انما تعرف ماذا سيحدث بعد الموت او ماذا يكمن وراء العالم المحسوس.

ففي رأيه ان كل ذلك ما هو إلا كلام وهمي وهروب من العالم الحقيقي الواقعي الذي ينبغي ان نهتم به: أي العالم الأرضي الفيزيقي لا العالم الميتافيزيقي الماورائي..

ثم ينهي المولف كتابه بالحديث عن مدرسة فرانكفورت وممثليها الأساسيين وبخاصة هوركها يمر وادورنو وأخيراً هابرماس.

ومعلوم ان هذا الأخير يجدد فلسفة التنوير في الغرب حالياً ويعطيها الثقة بنفسها عن طريق بلورة نظرية جديدة للعقل التواصلي الحواري: أي العقل الديمقراطي. وهو العقل الوحيد القادر على حل مشاكل المجتمع بشكل صحيح.

الكتاب: مدخل إلى الفلسفة الألمانية من كانط إلى هابرماس
الناشر: بلاك ويل بوبليشير . لندن ٢٠٠٤
الصفحات: ٣٠٤ صفحات من القطع المتوسط